اغتيالُ ابتسامة

مصطفى عواض - مصر

الأب:

أيامٌ مضت.. بل أسابيع.. بل شهور، لا أدري ربما أكثر وربما أقل، فقدتُ الإحساس بالوقت، وبنفسي التي تَضَعْضَعَتْ؛ لتقلُّبها بين منزلتَيْ البلاء والصبر، وبإدراكي الذي لم يَعُدْ يَعِي سوى بردٍ قارس، وليلٍ موحش، وظلمةِ بحرٍ مَدّ البصر، وهلاكٍ يحرسني وابني من مجهول المآل.

وأخيرًا بعد عناءٍ افترس أجسادنا، نادى المنادي: "إننا على بُعد ساعات من شاطئ قِبلتنا القادمة".

هلّل الناس وكبّروا، أما أنا فقد أخفيتُ وجهي بين كفّي، فَلَاحَ لي ما مررتُ به من معاناة كلمع البرق.. غريبة تلك العلاقة بين متناقض المشاعر، ما أتت إحداهما على أختها حتى أجهزت عليها، ومحت آثارها، ولم تُبْقِ منها سوى ما ناسب ميولها.

فإذا ابتُليتَ بعد نعمةٍ؛ نسيتَ ما كنت عليه من الفرحة إلا ما كان باعثًا للحسرة على فواتها، وإذا أُعطيتَ بعد منع؛ نسيت ما كنت عليه من الحزن إلا ما كان مدعاةً للتفاخر بالصبر أو الحمد، لكن في حالتي هذه كان الأمر مختلفًا.

لا أدري، كيف شرَدَتْ تلك الدمعة من عيني، فإذا بكفِّ صغيري تلامسها، وهو يقول: "لا تحزن يا أبت، إن الله معنا".

صحيح أن ابتسامتي لم تقدِرُ على اغتيال ذلك الحزن الكامن في ملامحي، والشقاء المتلفّع بجسدي، إلا أنها انعكست على وجه طفلي الصغير؛ فابتسم هو الآخر.. فقلت له: "أخيرًا يا صغيري، ستعود الفرحة لقلوبنا بعد أن جفَتْنا أمدًا طويلًا".

نظر صغيري إليّ مفكِّرًا، ثم لاح شبحُ حُزْنٍ على وجهه وهو يقول: "كنت آمل أن تكون أمي معنا". لم تُخلق بعد تلك الكلمات التي يمكن أن تخفف من شعور الفقد في قلب اليتيم، فلُذْت بالصمت!!

إنَّ وجهَ أي طفل حزين -مهما يكن منعّمًا- كافٍ بإشعال مشاعر من الإجلال في نفوس الناس، فما بالك بطفل تلوَّنَ وجهُه بألوان الشقاء.

آهٍ يا وَلَدِي، ويا ضعفي، إن ما مررتُ به من غُربة، وفقد للأحباب، وتشرد وضياع لا يضاهي عندي دمعة من عينيك تلك، وخيبةِ أمل أمَّلْتَه فيّ، وما باليد من حيلة؛ والخوف والموت رفيق خطواتنا.

احتضنتُه بقوةٍ لأخفِّفَ عنه، ودفنتُ أنفي في شعرِه، أبحث فيه عن بقايا رائحةِ زوجتي، التي لا أنفك أراها في خِلْقته وخَلْقه.

لا أريد أن أتذكّر الماضي الآن، ها قد حان الوقت لنبدأ حياةً جديدة، وبدأتُ أتصوَّر تفاصيل مستقبلنا بهذه المدينة، وأرسم فيها أحلامنا، وأشيد بها مآلنا، بالتأكيد ستستعيد يا صغيري فيها ضحكتك المفقودة!

******

الابن: كنتُ قديمًا أحبُّ رائحة البحر وأعشق قسماته، ولا غَرْوَ، فلا زلتُ أتذكر زيارتنا لشاطئ مدينتنا، كم كان يومًا لا يُنسى، كان أول يوم أرى أبي قد تخلَّى عن جِدِّيَّتِه، وتجاوز ذلك السور الأبويّ ليلعب معي وأمي على الشاطئ وقتَها.. عشقت البحر ورائحته، ولكني الآن أَمْقُتُهُ بشدة، قد علمت الآن أن ظاهرَ البحر مناقضٌ لباطنه، ها أنا في كَبِدِ البحر ولا أرى إلا ظلمتَه المُتّسِقَة مع ظلمة الليل، حتى انعكاس ضَوْء القمر على صفحته لم تشفع لهذه الظلمة، بل زاد من وحشته.

ما عدت أتذكر من أيامي الماضية إلا بعض المشاهد المتقطّعة: صوت أمي وهي تغنّي لي ألحانَ النوم وأنا متدثّرٌ بها، والأمان المنبعث من رائحة جسدها.. صوت أذان الفجر، دعاء أمي من فوق مُصَلَّاها.. وملامح أبي وهي ترقبنا في حُبٍّ، لم تعد تلك الملامح الآن كما كانت.

لا زلت أتذكَّر رائحة خبزِ أمي الساخن، أتذكر رائحة بيتِنا القديم، لم يَتَبَقَّ لي سوى رائحة الماضي، وفجأةً استحالتْ هذه الذكريات لصورٍ من دمار ودماء وصرخاتٍ وعويل، وجسد أمي المهترئ المُلْقَى خلف الأنقاض، وحُطام مأذنة

مسجدنا، وأوراق متفحّمة من إرث مدرستنا، خيالات لم تكن وليدة ما أنا عليه، بل هي الحقيقة الوحيدة الباقية معي أينما رحلت، تحوم حولي كذئب.

لا يزالُ ذلك الدوار برأسي يزداد مع ازدياد حركة المركبِ الذي تتلاعب به الأمواج..

بطني تُقَرْقِرُ من الجوع؛ فأنا لم أتذوق من الطعام إلا كِسْراتِ خبزٍ مُنحت لي.

يصيح المنادي: "إننا قد اقتربنا من مبتغانا".

لا أعلم شيئا عن هذه الغربة، ولكن الجميع هنا يصفُها بالجنة، لا أظنها تشبه جنّتي الماضية، وأي جنة تلك التي يتحدثون عنها دون أمِّي!!

ما هذا؟ لقد دمعتْ عينُ أبي، أعلم أن هذه الدمعة بسببي، فأنا هَمُّه.. هرولتُ إليه وأمسكت بدمعته، وقلت له ما كانت تقوله أمي لتخفف عني قبل رحيلها: "لا تحزن؛ إن الله معنا".

حاول لملمة همه وتعبه بهذه الابتسامة الهادئة، فابتسمت له، وأخذ يؤمّلني في مستقبلٍ مختلف.

- كنتُ أتمنَّى أن تكون أمي معنا.

لا أدري كيف فَضَحَ لساني ما يخفيه صدري، (سبحان الله)! قد قدرت على إخفاء جوعي ومرضي، محاولًا إثناء الهَمِّ عن أبي، إلا أن محاولاتي ذهبت

سُدًى، فها أنا ذا أُلْقِي إليه همًّا جديدًا، احتضنني أبي في قوةٍ ولم يعقِّبْ ولم أتكلم.

- ((المركب تغرق))

علا صوت المنادي بها، وجاورها صرخاتُ الناس، ومعهما اهتزت المركب؛ ففقدتُ وأبي توازننا، وغمرتنا المياه من كل جانب كتلك الأنقاض اللعينة، أمسك أبي ذراعي بقوة، وأخذ يصرخُ بتوجيهاته لي، إلا أن المركب مالت بنا بقوة، فانزلقت الأجساد إلى مؤخرة السفينة يسحق بعضها بعضًا، وما كان ينقذهم سوى كف من الأمواج تسحبُهم لها، فكانوا بين موتٍ وموت.. وقبل أن تنقلب المركب على وجهها، قفز الجميع إلى البحر..

لا أدري كيف أفلت أبي يدي، إنه يعلم جيدًا أني لمْ أتقن السباحة بعد.. وما أن ارتطم جسدي بالبحر، نظرت حولي فإذا بكل أحدٍ منشغل بحاله؛ فهذا يصرخ، وهذا ينادي على ولده، وهذا طفل مثلي ينادي على أمِّه، وقبل أن يستسلم جسدي لنداء البحر، أخذت أصرخ مناديًا اسم أبي، إلا أني لم أتلق الجواب، يا رب احفظ أبي من كل سوء.

صوت لحن أمي وغناؤها يعلو ويعلو، وأنفاسي تبطئ الخطوات، لا تكاد تلحق بروحي التي تنسلخ مني، ها هو الموت يَنْقَضُّ ليلتقط ما تبقى مني، صدِّقوني، لم أعد أخافه، بل وجدت بين أنيابه يكمن ماضٍ جميل، لا يزال صوت غناء أمي يعلو ويعلو، ثم.. أظلم كل شيء.

● **لمن تحمل مسئولية غرق ابنك؟**

لم أقدرْ على كتمِ دموعي بعد سماعي سؤال الإعلامي المشهور –الذي ترجمه لي أحد بني جلدتي- فرفعت عنها الستار، وقلت متماسكًا: "لا أُحَمِّلُها لعدوِّي بقدْر ما أحملها لنوّابهم؛ الذين مهّدوا لهم فعلهم، سواء عندي من شارك ومن صَمَتْ".